هل تنذر الأزمات الاقتصادية المتوالية

بانقضاء دور من ادوار الحضارة

اثرها في الحالات الاجتماعية

للاستاذ اسماعيل مظهر (صاحب مجلة العصور)

لستُ ممنْ يؤمنون بتفرد عامل بعينه من العوامل العديدة بالتأثير في تكوين التاريخ الانساني . فاني لا اجد مثلاً ان لعامل الجنسي من الاثر ما هو ابلغ من اثر العامل الاقتصادي ، ولا اجد للعامل الجغرافي فضلاً على العامل النفسي او بالاحرى على اثر الغرائز الحيوانية التي ورثها الانسان عن اسلافه الاولين في تكوين التاريخ . بل اعتقد ان للعوامل المؤثرة في تاريخ الانسان نوبات من التأثير تتابعت على تلاحق الدهور وعلى مر الاجيال. فان العامل الاقتصادي مثلاً لم يبدأ تأثيرهُ التاريخي الاّ مع نشوء المدنية . في حين ان العامل الجنسي وان كان اقدم منهُ تأثيراً في تكييف المنازع الانسانية الشيمة وتوجيهها الى ناحية بعينها من نواحي الحياة ، الاّ اني مع هذا مؤمن بأن اثر غريزة الاحتفاظ بالنوع متكئة على قطرة التناضد المتبادل في مسامع التاحر على البقاء، قد سبقت فعل الغريزة الجنسية في تكوين فكرة الشعوبية في الميول الانسانية . كذلك اعتقد ان فكرة الشعوبية او الوطنية من العوامل المؤثرة في تكوين التاريخ . غير ان هذا العامل على ما لهُ من كبير الشأن وعظيم الخطر في التاريخ الحديث ، واقصد به هنا تاريخ الانسان منذ اول العصر الظراني القديم ، ليس من العوامل التي نشأت مع الانسان غريزة ، بل هو من العوامل التي تكونت تدرجاً على مقتضى التكييف الذي تكيفتهُ غرائز الانسان على مدى عصور متطاولة. وكذلك تجد ان في افق التاريخ الانساني عوامل جديدة اخذت تعمن تأثيراً في توجيه التاريخ الانساني وجهة جديدة. فان فكرة الدولة مثلاً قد اخذت تبدو في افق المنازع الانسانية جلية واضحة

وسواء ارتكزت هذه العوامل الجديدة على غرائز اوعلى مجرد ميول فليس مَنْ ينكرُ انَّ لغير دليل وجهات الغرائز على اثر في بيّن الاساس الذي تقوم عليه هذه الغرائز، او بالاقل على اثر في الوجهات التي تتجه فيها الغرائز او بالاقل على اثره في الوجهات التي تتجهُ فيها او تتجهها الفطرة

هذا تمهيد اولي للكلام في الازمات الاقتصادية واثرها في الحالات الاجتماعية ، اثبت

عليه لا من وجهة نظري في تأثير العوامل التي كوّنت من مدارس الفكر بقدر ما احدثت في التاريخ الانساني من حوادث جسام وانقلابات عظيمة

* * *

لا نستطيع ان نكر مطلقاً ان الحالات البدائية التي تعرض لها الانسان ابان تغلبه على غيره من حيوانات الارض كان فيها من الاقتصاديات اثر ظاهر. فان الاحداث التي اتابت سطح الكرة الارضية ولا تزال تنتابها الى الآن ، كحدوث الجفاف او زيادة الرطوبة فجاءة او تدرجاً في بقاع الكرة الارضية ، قد اضطرت الجماعات الانسانية الاولى الى هجرات طويلة أو قصيرة ، على مقتضى الحاجة ، طمعاً في الاحتفاظ بالذات اولاً ، ثم بالنوع ثانياً . كذلك الجدب من ناحية والخصب من ناحية اخرى . فان هجرة اقوام اجدبت بلادهم الارض الى بقاع خصبة احتلها من قبل اقوام آخرون ، حادث تدعوه تجاوزاً اقتصادياً. ومن حول هذا الحادث الاقتصادي تقوم مؤثرات اخرى . فالمؤثر الجنسي لا بد من ان يلعب دوراً خطيراً في مثل هذه الحالات . وكذلك المؤثر الجغرافي والاقليمي Climatic غير ان هذه المؤثرات وان لعبت دوراً ثانوياً من حول المؤثر الرئيسي ، فان ذلك لا يفقدها قيمتها من حيث انها مؤثرات اولية في تكوين التاريخ . فقد يلعب المؤثر الاقتصادي دوراً ثانوياً من حول حادث كان سببهُ المؤثر الجنسي او الجغرافي او الاقتصادي مثلاً . وهكذا دواليك على مر الازمان . فان المؤثرات التي كونت التاريخ الانساني اطواراً من الغلبة والتناوب ، قد يطول احدها او يقصر على حسب الحالات

فما لا شبهة فيه ان المؤثر الاقتصادي اخذ يقوى ويشتدُّ أثره ، منذ ان اخذت الآلات وعصر الانتاج الصناعي بخناق المدنية الغربية . وكذلك الحال اذا رجعت الى التاريخ . فانك تجد ان لكل مدنية من المدنيات العظمى طابعاً خاصاً . وما هذا الطابع لدى الواقع الاّ تغلب مؤثر بعينه من المؤثرات التي كونت التاريخ الانساني وتقدمهُ على غيره من المؤثرات الاخرى التي تدور من حوله في صورة مؤثرات ثانوية لزمان محدود بظروفه ومقتضياته

فليس من ينكر مثلاً ان الفن كان طابع المدنية اليونانية . هذا باعتبار ان « الفكر » فن من الفنون على ما يبيّنهُ العلامة جراهام والاس في كتابه « فن الفكر » The Art of Thought هذا كما كانت السياسة طابع المدنية الرومانية . اما طابع المدنية الحديثة فالاقتصاد . اما هذه الفروق فرجعها تغلُّب مؤثر بعينه من المؤثرات التي كونت التاريخ الانساني ، وأخذه من الفكر والميول الانسانية مكان البروتون من الذرة ، تدور من حوله بقية المؤثرات في صورة عوامل ثانوية يتوقف وجوده عليها ويتوقف وجودها عليه ، شأنها في ذلك شأن

الكهارب تدور حول البروتون . لان بها تتميز العناصر . وعلى تغلب احد المؤثرات في الغريزة الانسانية تتوقف الصورة التي تظهر ملابسة للمدنية في عصر من العصور

ولم كان طابع المدنية اليونانية طابعاً فنياً ؟ ولم اصبح طابع المدنية الرومانية سياسياً؟ ولماذا لا يبرز الطابع الاقتصادي المدنية الحديثة؟ قد تفرض فروضاً كثيرة ، وقد تمشي مع هذه الفروض الى حد القول بأن المؤثر الذي قد تغلب في المدنية اليونانية ، فصرفها الى الخياليات والمثاليات فانت الى الفن ، وان المؤثر الوطني قد تغلب على الرومان فصرفهم الى السياسة ، وأن مؤثر الجشع الاجتماعي (Pleonexia) على ما قال العلامة « موللر ليير » وشرحه الاسقف « إنج » (Inge) الذي خلقه استعمال الآلات في عصر الانتاج الصناعي ، قد صبغ المدنية الحديثة بصبغة الاقتصاد

ان هذه الفروض لا يمكن ان نحكم فيها هل هي صحيحة او غير صحيحة ، ذلك ان صحتها أو خطأها مرهون على مقدار ما يمكن لك ان تقدر من تأثير العوامل الثانوية الاخرى في المؤثر الرئيسي . فقد يتفق ان نحكم على حركة دينية بانها حركة اقتصادية ، ولكن خطأ . ذلك ان المؤثر الاقتصادي يكون في مثل هذه الحالات اقوى المؤثرات الفرعية القائمة حول مؤثر رئيسي ، وهو الذي يجب ان يعزى اليه في الحقيقة قيام حركة ما من الحركات الاجتماعية في عصر ما من العصور. كما ان عكس ذلك قد يتفق ان يكون صحيحاً من وجوه شتى . و قد يتفق ان نحكم على حركة اقتصادية مثلاً بانها حركة سياسية او وطنية . ذلك لان المؤثر السياسي او الوطني يكون اقوى المؤثرات الثانوية الدائرة من حول الباعث الرئيسي في العالم الاجتماعي ، دوران الكهارب من حول البروتون في عالم الذرة

لهذه الاسباب الضرورية اعتقد ان باعثاً بعينه من البواعث التي كونت التاريخ الانساني ، لم ينفرد بذاته في تكوين التاريخ . كما اعتقد ان الصور المتعاقبة التي نراها واضحة في لوحة التاريخ هي بذاتها مزيج متشابك الحلقات من آثار البواعث الكثيرة التي ظلت خلال ازمان متطاولة دائبة مستمرة الفعل ، بعين لا تأخذها سنة وهمة لا تعرف الكلال

***

تستقر الحالات الاجتماعية ما اتسق تأثير حالة من الحالات الباعثة على تكوين التاريخ الانساني زماناً ، قد يطول او يقصر امده . فاذا اتفق ان يأخذ الباعث الاقتصادي مثلا من بقية المؤثرات الاخرى ، مكان البروتون في الذرة ، فان الحالة الاجتماعية تستقر على هذه الصورة ، وتمضي متسقة متناسقة الاجزاء زماناً ما . ومن هذه الحالة يتكهن السواس والاجتماعيون عن مستقبل الشعوب تكهنات عديدة كلها خطأ وكلها حدس وتخمين . فان

شباً يصاب بمثل هـذا الاستقرار الاجتماعي ، قد يرمى بالشيخوخة وبالعجز عن الانتاج والابتكار ، بعد ان يكون قد قطع في مضمار الثقافة شوطاً بعيداً . في حين ان الحقيقة ان هذا الاستقرار الظاهري راجع الى تسوّد عامل تاريخي على بقية العوامل ، فتصطبغ الحالة الاجتماعية بصبغة تلوح كأنها ثابتة غير قابلة للتغير ولا للزوال

ثم نجد بجانب هـذا ان الشعوب التي تصاب بالجمود على صورة يخلقها تسوّد العنصر الجنسي يرمون غيرهم من الذين يسود فيهم الباعث الاقتصادي بانهم ماديون ويعدون هـذا انحطاطاً . في حين ان الشعوب التي تصاب بالجمود على صورة يخلقها تسوّد العنصر الاقتصادي يرمون غيرهم من الشعوب التي يسود فيها الباعث الجنسي بانهم حسيون ، ويعدون هذا فساداً في الطبع ونقصاً في الفطرة . وقد يبلغ التعصب بالجماعات لرأيها مبلغ الجنون في بعض الحالات

فاذا اخذ مؤثر من المؤثرات الثانوية التي تدور من حول المؤثر الرئيسي ، مكانة المؤثر الرئيسي ، فهنالك تكون الانقلابات الاجتماعية ، وهنالك تحدث الفورات ، التي يقول عنها السواس والاجتماعيون انها بدء حياة جديدة لشعب ما او لمجموعة بينها من شعوب الارض . ولاجرم انك اذا استطعت ان تدرك مقدار الاضطراب الذي يحدث في ذرة مادية اذا حاول كوكب من كواكبها ان يأخذ مكان البروتون ، حصلت على قياس تقيس اليه مدى الفوضى والاضطراب اللذين يصيبان حالة اجتماعية استقرت على صورة ما من الصور زماناً طويلا ، فألفتها الطبائع ورضيت بها النفسية الاجتماعية ، اذا ما بدأ مؤثر ثانوي من المؤثرات التاريخية يحتل مكان مؤثر ظل رئيسيًّا مدى ما من الزمان

غير ان هذا الاضطراب وتلك الفورات قد تؤدي بدورها الى تسود باعث معين من بواعث التاريخ الانساني ، تلتئم من حوله بقية البواعث ، فتؤثر فيه ويؤثر فيها تبادلاً ، حتى تستقر الحالة مرة اخرى على جمود ترضى عنه الجماعات . وهكذا على مرّ الازمان . وفي معتقدي ان فلسفة التاريخ الانساني في مجموعه لا تخرج عن هذا

* * *

هذا في المنزلة التي ينزلها المؤثر الاقتصادي من المؤثرات الاخرى التي تعاون في تكوين التاريخ الانساني . اما تأثير الازمات الاقتصادية في الحالات الاجتماعية ، فلا جرم تكون على اشدها في عصر تسوّد فيه المؤثر الاقتصادي وأخضع بقية المؤثرات لسلطانه . بهذا نمهد للنتيجة التي نريد ان ندلي بها بحيث يؤدي اليها [1]

اثبت العلامة « ملتوس » ان الانواع الحية ومنها الانسان ، تتزايد بالتوالد على نسبة

(١) راجع بعض الابحاث الاجتماعية التي اقامها على اساس اقتصادي في مجلة « العصور »

هندسية ، وان نسبة زيادتها على هذه الصورة تقصر معه اية بقعة من بقاع الارض عن ان تتسع لنسل الاحياء اذا استمرت زيادتها هذه دون حائل يقف تيارها. ولا جرم ان هذه القاعدة تنطبق على الحيوانات في حالتها الطبيعية . وتنطبق على الانسان في حالاته البدائية الوحشية ، اكثر مما تنطبق على الحيوانات حال ايلافها، او على الانسان اذا لابسته حالات مدنية معينة . فالحيوانات في حالتها الطبيعية تتوالد من غير ان تفكر في تحديد النسل . فاذا زادت نسبة عددها الرياضية نسبة كبيرة سلطت عليها عوامل طبيعية ليس في وسعها ان تدفعها بحال من الاحوال . على العكس من الحيوانات في حالة الايلاف ، فان زيادتها راجعة الى ارادة الانسان . وكذلك تحديد نسالها وبطونها بيد انها محمية من طوارىء الطبيعة بعناية الارادة البشرية . فاذا رجعنا الى الانسان في حالته البدائية ، وجدنا انهُ لا يخرج عن حكم الطبيعة العام . فانهُ اذا تناسل وكثر نسله وزادت نسبته الرياضية من عدد الافراد سُلِّطت عليه من الطبيعة مهلكات تقف زيادة افراده عند حد محدود . وهذا على الضد من الانسان متى لابسته المدنية . فانه يستطيع ان يدفع عوامل الطبيعة بوسائل صناعية ، وفي مستطاعه ان يتسود على الطبيعة وعلى قواسرها ، فيصبح سيداً بعد ان يكون مسوداً. بل انهُ يستطيع ان ينقذ من الموت والفناء افراداً من نوع كتبت عليهم الطبيعة آية الموت، ان تركوا بلا عناية من علاج او وسائل من الوقاية

* * *

اضف الى ذلك ان الطبيعة لا تعرف الرحمة ولا تفقه للشفقة معنى . في حين ان من اخص صفات الانسان الشفقة والرحمة وعلى الاخص بالضعفاء والمرضى . والطبيعة تدفع الاحياء الى الاحتفاظ بالنوع ، كما تدفع الفرد الى الاحتفاظ بالذات . ولكنها في الوقت ذاته لا تعمل على حماية النوع او وقاية الفرد الاَّ بقدر ما تهيئ للنوع او للفرد فرصة البقاء . فهي تسرف في الانتاج من ناحية ثم تسرف في الضياع والبذل من ناحية اخرى. وهي بقدر ما تسرف في التنويع تضن بالابتكار . لهذا تجد ان الصور المبتكرة في الطبيعة وهي غالباً الصور التي تتعب في التاخر ، قليلة جهد القلة وان الطبيعة تضنُّ بها. فهي من هذه الناحية بخيلة شحيحة ، في حين انها اذا انتجت رمت عالم الحياة باللايين . واذا أنتت سلتهُ اللايين . وهي في التنويع لا يبلغ ابرانها حدًّا فليس يوجد في العالم ، كما قال كوفيه، شجرتان او حيوانان او انسانان كلاَّ بل زهرتان او ورقتان هما صنوان، لا تغاير فيهما ولا تباين بينهما

اذا وعينا هذه المبادىء خرجنا منها بنتيجة لا يجب علينا ان نتغافل عنها. فشعوب الارض

قطبة تباهي اليوم بكثرتها ، والطبيعة تجود عليها بالافراد مسرفة اسرافها المعروف. والحضارة من وراء ذلك تؤيد اسراف الطبيعة في الانتاج . فلا مجاعات اليوم ولا اوبئة ولا وفيات بين الناس بالنسب المعروفة التي حفظتها الاحصائيات خلال قرن ماض من الازمان ، على ما كان خلال ذلك القرن من رقي مقيساً بما سبقه من القرون . ناهيك بأن كثيراً من الامراض الوبائية كالزهري والملاريا والانيميا والكوليرا مثلاً ، اصبحت من أسهل الامراض علاجاً او وقاية . فاذا اضفت الى ذلك الوقاية من كثير من الامراض الخبيثة عرفت الى اي حدّ أيّد الانسان باستكشافاته اسراف الطبيعة في الانتاج . فاذا تذكرت ان الانسان ان كان قد ساعد اسراف الطبيعة في الانتاج، فانه قد زادها شحّاً في الابتكار وضناً به ، خرجت من ذلك الى نتيجة اخرى ذات بال

***

ان ابتكار الطبيعة انما يكون انتخاباً من مجموع الافراد الذين يقدر لهم البقاء ، بعد ان تعمل قوانين الطبيعة وأعاصيرها الناتج من الافراد ، فتذهب بالاكثرية الى الفناء وتبقي على ما يصلح للبقاء. فهي لا تبقي الا على الاصلح والاكثر انتاجاً والاشد مقاومة والاصفى عنصرا والامتن تكويناً والاعمق تفكيراً والاذكى والاعقل . في حين ان مكتشفات الانسان ووسائله قد عمدت الى الحد من قوة الطبيعة الابتكارية ، بأن هيأت فرص البقاء لعدد اكثر مما تريد الطبيعة ان يبقى فيها، لو انها تركت حرة غير مقيدة. وبهذا نجد ان الطبيعة بمساعدة الانسان، قد زاد اسرافها في الانتاج وقل ابتكارها للافراد او السلالات الممتازة. وهذه حالة كما اوجدها الانسان، يجب عليه ان يبحث عن علاج لها ، يروّح به عن مدينته ويخفف به وطأة الفوضى ، ويحد به من بواعث القلق البادية في جبين هذا العصر

والدليل الثابت على هذا زيادة عدد النوع الانساني خلال اربع القرون الفارطة زيادة اذا قسنا نسبتها بنسبة الزيادة خلال القرون الوسطى ، او القرون المظلمة كما يسمونها لما وسعنا الا ان نرتاع وان نشك في صلاحية الوسائل المدنية ، على رقيها وعظمتها ، لان تكون سنادة ترتكز عليها الحياة الانسانية ، مشبعة كلّ مطامحها من السعادة والطمأنينة. والمثل البسيط على هذا ان قارة كالقارة الاميركية استعمرت من اقل من خمسة قرون وازدحمت بالنوع البشري على قلة وسائل الوقاية والحروب القائمة والثورات المجتاحة والمجاعات المدمرة . وكذلك لديك اوستراليا مثل حيّ على هذا . وكلما ازداد تسود الانسان على الطبيعة ازداد اسرافها في الانتاج وقلّ ابتكارها فخرج من مجموع ذلك

نوع بشري مصطنع تزيد في نسبة الطالحين اجتماعيًّا وطبيعيًّا وفي هذا ينحصر السبب في ما يبدو على جبين هذا العصر من بواعث القلق والشعور باقتراب الفورات الفجائية والاحساس العميق بأن نظام المدنية الحديثة ، ونعني به بالضرورة النظام الاقتصادي ، لا بد سهارٌ وانه لا بد من ان يتبدل الانسان بهذا النظام نظاماً آخر اقرب إلى حاجاته وأرضى لمطالبه النفسية والروحية

فما هو أثر الازمات الاقتصادية الشديدة في مثل هذا النظام الاجتماعي؟

***

اذا تذكرنا ان الباعث الاقتصادي اذا تسود في نظام جماعة من الجماعات رفع من مستوى الحياة فيها ماديًّا ، واذا تذكرنا بجانب هذا ان النظام الاقتصادي من شأنه ان يصرف الناس الى رفع مستواهم العقلي من النواحي العملية دون النواحي الاخرى استطعنا أن ندرك أن الجماعات في ظل النظم الاقتصادية تصبح أقدر على الانتاج المادي دون الانتاج الفكري او الروحي فاذا وقعت الازمات الاقتصادية ونزل مستوى المعيشة قسراً عن الناس ، تعدى الامر من ازمة اقتصادية الى أزمة روحية فكرية هي السبب غالباً في الثورات التي تعقب حدوث الازمات الاقتصادية . ثم لا يجب ان نغفل عن ان عصور الرخاء المادي من شأنها ان تزيد تطلع المتطلعين كما تزيد من عددهم. فاذا وقعت الازمات الاقتصادية تحرك هذا العنصر تلك الحركات الموجية التي تدفع بقية العناصر الى الثورة والى الانحراف عن النسق العام

اما اذا تكررت الازمات الاقتصادية ، فان هذا يصبح سبباً قويًّا في ان ينصرف الناس الى البحث عن نظام آخر غير النظام الاقتصادي يرضي مطامعهم وحاجاتهم العقلية. وهنالك يبدأ الباعث الاقتصادي في النزول عن عرش السيادة على بقية العوامل المكونة للتاريخ الانساني . ولاجرم ان هذه الظاهرة قد اخذت تبدو في افق المدنية الحديثة . اخذت تظهر حيناً في صورة شيوعية ، واخرى في صورة فاشستية اما الواقع فان الفاشستية عبارة عن رد فعل يحاول دعاة الفاشستية من ناحيته ان يقاوموا شعوراً عميقاً غير مدرك تماماً بان النظام الاقتصادي اصبح عاجزاً عن ارضاء الكثير من حاجات الناس الروحية . فالمدنية الحديثة تشرئبُّ الى باعث روحي يروّح عن صدور الناس ما تحجّر فيها من جمود النظام الاقتصادي الحاضر